الأهرام

التاريخ : ١٢ مارس ٢٠٠٢

رحلة في بلاد "العم سام" تكشف كيف غيّرت أحداث ١١ أيلول وجه أميركا

في إيلينوي تنتهي "مادية" المدن الكبرى وتكشف أميركا عن وجهها المتدين

نيويورك بلا برجيها ليست نيويورك... إطفائيوها "أبطال"... اسرائيل حاضرة والعرب غائبون

«جولة في بلاد العم سام» بعد ستة اشهر على تفجيرات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ انطباعات عن مدينة نيويورك والتغيير الذي حصل فيها بعد سقوط برجي مركز التجارة، كما تروي قصة رحلة الى «قلب أميركا»، في ولاية إيلينوي، حيث تنتهي أميركا المادية وتبدأ أميركا المتدينة.

□ نيويورك -
كميل الطويل

■ نيويورك لم تعد نيويورك. إنها مدينة اخرى. ناقصة. بلا برجيها العملاقين، تكاد نيويورك تكون مدينة عادية.

ستة اشهر مرت على الاعتداءات التي استهدفت «التفاحة الكبيرة»، أو «ذا بيغ ابل» مثلما تُعرف بالإنكليزية. نيويورك مدينة تختلف عن غيرها. مبانيها الشاهقة عديدة. لكن برجي مركز التجارة العالمية كانا من دون منازع أعلاها، واكثرها رهبة. كانا واقفين بعناد، كانهما يُناطحان السحاب. ومن على رأس قمتهما، كانت ناطحات السحاب الأخرى تبدو وكانها أطفال صغار يتطلعون، بخجل ورهبة، الى «مارد» واقف فوقهم.

أردت ان أكتب شيئاً عن البرجين عندما زرتهما للمرة الأولى، قبل سنة من اليوم. أردت ان أقول انني «فهمت» لماذا حاول رمزي يوسف تدميرهما، عندما فجّر شاحنة مُفخخة أسفل أحد البرجين على أمل ان يسقط أحدهما على الآخر. أراد يوسف، القابع في سجن فيديرالي منذ ١٩٩٥، ان يُحطّم هيبة اميركا سنة ١٩٩٣. أراد ان يمرّغ أنفها في الوحل. لكن البرجين صمدا، ونجت نيويورك من كارثة.

لكنني، في نهاية الأمر، قررت ان لا اكتب عن البرجين. لم أكن أعرف انها المرة الأخيرة التي سيُتاح لي الصعود الى قمتهما.

كُنت أنظر من السماء. الطائرة، الآتية غرباً من شيكاغو، تقترب من سماء مانهاتن. أمعنت النظر. كُنت أفتش عن «البرجين»، او ما تبقّى منهما. جزء مني كان يقول انهما لا بد وان يظهرا. غير ممكن ان يختفيا بالكامل. كم كنت مُخطئاً. حطّت الطائرة ولم أرَ أثراً لهما.

اتجهت في اليوم التالي صوب جنوب مانهاتن، حيث يقع مركز التجارة. كانت قلبي يزداد خفقاناً مع اقترابي من المكان. الحياة من بعيد بدت عادية. آلاف الموظفين والعمال والمارة يتسابقون للوصول الى مراكز عملهم. كأن شيئاً لم يكن. تساءلت في نفسي: هل نسي الناس البرجين؟ لكن الجواب جاء سريعاً. إذ رأيت من بعيد طابوراً طويلاً. نساء ورجال، أطفال وشيوخ، بيض وسود وملونون. من كل حدب وصوب جاؤوا. كانوا يتحرّكون ببطء شديد. ينظرون الى لوائح طويلة تضم صوراً للضحايا الذين سقطوا في تحطم البرجين، صباح ١١ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠١. مئات الصور وفي أسفل كل منها مرثية. أم ترثي إبنها، أخت أخاها، موظف زميله في العمل. جميع الذين ماتوا في ذلك اليوم الرهيب، وهم في الإجمال أقل بقليل من ثلاثة آلاف رجل وإمرأة، يعتبرهم سكان نيويورك «شهداء» مذبحة البرجين. غير ان بينهم أيضاً شهداء من درجة مميزة: «أبطال»، مثلما يُطلق عليهم العامة في نيويورك. هؤلاء «الابطال» هم أفراد فرق مكافحة الحرائق الذين هبّوا لإنقاذ المحاصرين في برج مركز التجارة الذي ضربته الطائرة «الانتحارية» الأولى. أكثر من ٤٠٠ من الإطفائيين، والى جانبهم عدد أقل من رجال الشرطة الذي هرعوا لمساعدتهم في إخلاء المنطقة المنكوبة، قضوا خلال قيامهم بواجبهم. ٤٠٠ إطفائي عدد كبير بلا شك، إذا ما قورن بالعدد الإجمالي للضحايا. لا بد انهم قاموا بعمل جبّار. فالبرجان كانا يضمان في اليوم العادي أكثر من ٦٠ الف موظف وزائر.

مررت في الطابور كغيري من المارة. أقرأ المرثيات، واحدة تلو الأخرى. قبل ان أصل الى النهاية، لفتتني واحدة منها. نجمة داوود تُغطّي جانباً كبيراً من لوحة النعي. تحتها عبارات تضامن من الاسرائيليين مع سكان نيويورك في مأساتهم. عندها فقط، انتبهت إنني لم أرَ عبارات تضامن عربية مع الضحايا. ربما فاتتني عبارة أو اثنتين (وربما أكثر)، لعلها كانت خجولة بقدر كاف جعلها تبدو وكأنها غير موجودة بالكامل. صرت أبحث عنها. لكنني لم أرَ شيئاً، على رغم ان العديد من الضحايا في البرجين عرب. قلت في نفسي إن الإسرائيليين يعرفون كيف يُظهرون للغرب وجههم الحسن، وهي مهمة يبرع العرب في الفشل فيها.

انتقلت من الطابور المخصص للعامة الى باحة خلفية مُخصصة لـ«الشخصيات الرسمية» وذوي الضحايا. قيل لي انه مكان للتضرع والتأمل فقط، وان عليّ ان الزم الصمت. فربما كان الى جانبي بعض من ذوي الضحايا الذين قد يستاؤون من وجود عربي بينهم. رأيت باقات زهور قدّمها زعماء وشخصيات عربية زارت المكان تعبيراً عن التضامن مع نيويورك وضحاياها. لكنني لم أكن مهتماً بذلك. فباقات الزهور سترمى بعد ذبولها. صرت أبحث مجدداً عن كلمات تضامن عربية على اللوائح القماشية التي تحمل صور الضحايا. أعلام الدول الذين قضى مواطنوها في سقوط البرجين، تقف في صفوف افقية وعمودية. بعضها تغطيه بالكامل صور الضحايا. لكنني، على رغم ذلك، ميّزت أعلاماً عربية بينها

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

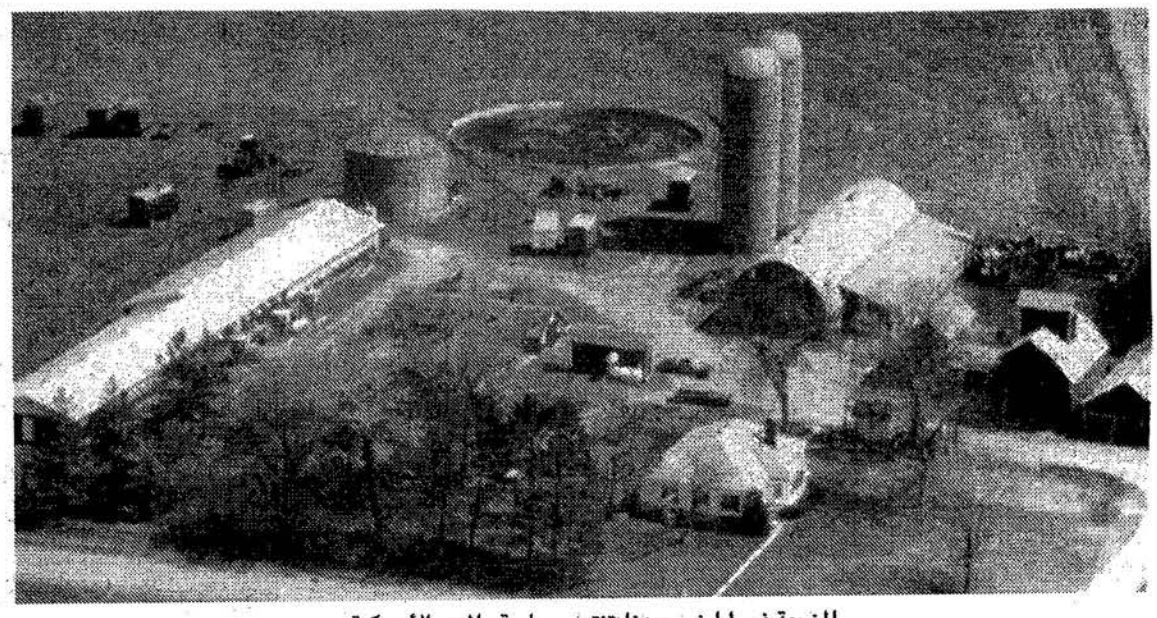

المزرعة في إيلينوي: هنا تنتهي «مادية» المدن الأميركية.

علما لبنان وفلسطين. لكن عبارات التضامن كانت هنا أيضاً شبه غائبة. فقط عبارات التضامن الاسرائيلية كانت تظهر بوضوح. التضامن من الرسميين العرب شيء جيد بالتأكيد، لكن باقات زهورهم لن تُحفظ في متاحف نيويورك. المرثيات، على الأرجح، ستبقى لتكون شاهداً على تاريخ مأساة لم تر نيويورك مثلها من قبل.

برجا مركز التجارة كان يقفان هنا. اختفيا. لو لم أكن أعرف ان هذا هو مكانهما لظننت نفسي في ورشة بناء عادية. حتى ركام البرجين لم يعد موجوداً. العمال يُنظّفون الآن الأنفاق التي كانت تحت مركز التجارة. قريباً، سيُبنى مركز تجارة جديد أو نُصب تذكاري للضحايا. سينسى الناس ما حصل. لكن نيويورك لن تعود كما كانت. لقد تغيّرت الى الأبد.

رحلتي الى نيويورك، بعد ستة أشهر من تفجيرات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، كانت محطتي الأخيرة في رحلة قادتني قبل ذلك الى واشنطن، العاصمة الفيديرالية، ثم ولاية إيلينوي. وإذا كانت زيارة واشنطن هدفها لقاء المسؤولين الأميركيين المكلّفين سياسات الشرق الأوسط ومكافحة الإرهاب (الحلقة المقبلة)، فإن الانتقال الى إيلينوي كان هدفه الإطلاع، عن قرب، على موقف المواطن العادي الأميركي من «الحرب على الإرهاب».

لهذه الغاية نزلت ضيفاً على عائلة أميركية تملك مزرعة نائية على الحدود بين ولايتي إيلينوي وويسكونسون. تبعد هذه المزرعة أميالاً عن أقرب نقطة حياة أخرى، وتتبع لها هيكتارات عدة معظمها أرض زراعية تُنتج قمحاً وذرة. وفيها أيضاً مزرعتان، واحدة للأبقار وأخرى للخنازير. صاحبها، ايلفين، أبيض في الستينات من العمر، وما زال مُمتلئاً حيوية ونشاطاً. اكتشفت، في الأيام الثلاثة التي استضافني فيها، انه يصحو من النوم في الرابعة فجراً لحلب بقراته (أقل بقليل من خمسين) وإطعام خنازيره (بضع مئات)، ثم للبدء في حرث الأرض أو زراعتها. لم يتوقف منذ صباه عن أداء هذا العمل، على رغم طقس إيلينوي القارص. لا يأبه بالثلج المتكوم على جنبات الطرق وأطراف الحقول، ولا بالرياح العاصفة التي ينخر صقيعها عظم الإنسان. الحياة في مزارع إيلينوي صراع يومي بين الطبيعة والإنسان.

كم هي الحياة هنا، في «قلب أميركا»، مختلفة. ليست هذه الولايات المتحدة التي نراها في أفلام العنف والقتل والسرقة والمال والجنس.

ثلاثة أيام غير كافية بالتأكيد لتقديم صورة وافية عن حياة الأميركيين في قلب قارتهم. لكنها سمحت، في أي حال، بتصحيح صورتين عالقتين في ذهن غير الأميركيين عنهم.

١- النظرة الشائعة عن الأميركيين في العالم انهم «جهلة»، لا يعرفون ماذا يحصل خارج حدود بلادهم، أو بالتحديد ولاياتهم. لكننا في عصر «الإنترنت»، وما كان صحيحاً قبل سنوات لم يعد صحيحاً اليوم. نعم هناك «جهلة» لا يعرفون أبعد مما يحصل في مزرعتهم. لكن هؤلاء موجودون في مجتمعات العالم كلها، وليسوا حكراً على أميركا وحدها. ايلفين، صاحب المزرعة، وزوجته وأبناؤه يستخدمون جميعهم الانترنت. يقرأون عما يحصل في العالم. يعرفون، مثلاً، عن العراق ورئيسه صدام حسين، وعن العقوبات الدولية المفروضة عليه. يعرفون عن قصف مصنع الشفاء في السودان عام ١٩٩٨ (يُحمّلون، مثلاً، الرئيس السابق بيل كلينتون المسؤولية عن الخسائر التي نتجت عن قصف مصنع الأدوية، خصوصاً بعدما تاكد انه لا يُنتج مادة سامة، مثلما زعمت الإدارة الأميركية في تبريرها لتدميره قبل سنوات). يعرفون الكثير عن العالم الإسلامي، مما يسمح لهم بالتمييز بين «الإرهاب والإسلام». غير انهم، في النهاية،

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

أميركيون. ما حصل في ١١ أيلول ٢٠٠١، في نظرهم، يُعتبر جريمة لا تُغتفر، وعلى القائمين بها تحمّل عواقبها، وهو ما يحصل في افغانستان، كما يعتقدون.

٢- صورة شائعة أخرى عن الأميركيين، أيضاً، انهم «ماديون»، يعشقون المال والجنس. نعم، قد يكون هذا صحيحاً في المدن الكبرى. لكن أميركا ليست فقط نيويورك ولوس انجليس ولاس فيغاس. في «قلب أميركا»، الناس يبدون غير ماديين أبداً. إنهم مزارعون يعشقون أرضهم. متدينون الى أقصى درجة. العائلة التي نزلت عندها، مثلاً، لا تشرب خمراً ولا تدخن تبغاً. إنهما «حرام» لا يدخل منزلهم. لا يشربون القهوة ولا الشاي (لأنهما يحويان مادة الكافيين، على ما يبدو). فقط كوب من الماء الى جانب وجبة الغداء أو العشاء. قبل بدء تناول الطعام، تجلس العائلة بصمت الى الطاولة في انتظار انتهاء رب الأسرة من تلاوة شكره لله على نعمته ويطلب منه مباركة الطعام الذين هم على وشك البدء في تناوله. أما الأحد، فهو يوم عطلة إلزامية، يرفض فيها الأب القيام بأي عمل سوى الذهاب الى الكنيسة لحضور قدّاس صلاة الجماعة.

ذهبت الى الكنيسة مع الأب وأسرته. في الطريق اليها، رأيت عشرات الكنائس التي تتبع مذاهب مسيحية مختلفة: اللوثرية، الانجيلية، التبشيرية، البروتستانتية، الكاثوليكية، والمورمونية (الأكثر انتشاراً حالياً بين الأميركيين، إضافة الى الكنيسة الكاثوليكية التي تستفيد خصوصاً من المهاجرين الجدد الآتين من دول أميركا الاتينية والجنوبية). كنائس لا تحصى، لا تبعد الواحدة عن الأخرى سوى عشرات الامتار. كل هذه الكنائس ونحن ما زلنا بعيدين ولايات عديدة عما يُسمى «حزام الانجيل» (ذا بابيل بلت) الذي تنشط فيه الجماعات المسيحية (حيث يُمنع في بعضها، مثل ولاية يوتا، تعاطي الخمر أو بيعه في المحلات).

ويقولون عن أميركا انها «مادية»!

ماذا يمكن ان يُقال، في النهاية، عن الأميركيين القاطنين في «قلب» بلدهم، وكيف تاثروا بأحداث ١١ أيلول؟ شيء واحد يطغى على كل ما عداه: لقد ازدادوا وطنية. لقد نجح أسامة بن لادن، على ما يبدو، في توحيد المجتمع الأميركي، المقسم منذ حرب فيتنام. أعلام الولايات المتحدة، بخطوطها ونجومها، تُرفرف أمام المنازل وعلى السيارات. لا تكاد واحدة منها تخلو من هذه العلامة، وكانها باتت دليلاً على «وطنية» صاحبها.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية